الكنيسة الشرقية الاورثذكسية

نظر الاب فرنسيس تورنيتي اليسوعي

قد توجهت انظار كتبة الغرب الى درس الشرق وكلّ ما يتوط به من تاريخ وآثار وآداب ودين فلا يمرّ علينا يوم واحد دون ان نطّلع على مطبوعات جديدة تميط القناع عن بعض مجهولات الشرق. وممّا تمنّيناه آخرًا بل افرح كتاب وضعهُ احد رؤساء كليتنا في العام المتضرّم وتمثيل أسرة انكليزيّة بعريقة في الشرف الدكتور ادريان فرتسكيو — كان قصد بلاد الشام ليُنجز عملهُ فتمّ اليوم نشرهُ طبعًا. وهو بالانكليزيّة وعنوانهُ « الكنيسة الشرقية الاورثذكسيّة » ولما كان هذا التأليف ذا شأن عظيم لمعرفة احوال الكنائس الشرقيّة في بلادنا اردنا ان نشع قليلًا في وصفهِ تمرينًا بحاسنهِ

١ مصنف الكتاب واسانيده

ليس مصنّف هذا الكتاب ممّن يبتدرون الكتابة قبل التروّي والتنقيب الطويل ومعلوم انّ الكلام في الكنيسة اجمالًا يقتضي معارف دينيّة واسعة كاللاهوت النظري والادبي واخصّ التقويميّ ودرس اعمال الآباء ومجامع. فالكلام في الكنيسة الشرقيّة خصوصًا فانهُ يستدعي ما خلا ذلك درس التاريخ الكنسي ونظم كنائس الشرق وطقوسها ومختلف احوالها في داخليتها وخارجيتها. وقد ادرك ذلك كلهُ مؤلف هذا الكتاب فانهُ تخرّج في كل العلوم الدينيّة في كليّة الجزويت من اعمال النساء على اساتذتها البارعين من الرهبانيّة اليسوعية فنال رتبة اللقب في الفنون المذكورة ثمّ تفرّغ للبحث عن امور الشرق الدينية حتى تنقّبها ولنا شاهد على همتهِ واتساع معارفهِ في هذا الصدد في المقدّمة التي صدّر بها كتابهُ حيث سرد اسماء المصنّفات المتعدّدة التي راجعها لتأليف هذا السفر الجديد مشيرًا الى كلّ كتاب انتقدَ على مزاياه الخاصة اما استحسانًا لها واما قبحًا لشوائبها. ومما ساعدهُ على مراجعة كتب عديدة معرفتهُ التامّة لعظم لغات اوربا فتقرّبت اليهِ بذلك مؤلفات بلاد شتى لمكنهُ اقتباس فوائدها ولاسيما الجلات الشرقية

* وهذا عنوانهُ في الانكليزية THE ORTHODOX EASTERN CHURCH by Adrian Fortescue, Ph. D., D. D. with illustrations by the Author, *London. Catholic Truth Society*, 1907, XXVII-451.

التي اختصت بآثار الشرق واحوال الشرقيين . ولم يكتف بتدوينها بدول تلك التآليف بل تراهُ في ذيل كلّ صفحة من كتابهِ يشير الى الاسانيد التي يدعم اليها اقوالهُ وان اقتضى الامر ذلك فقد آراه من سعة تحجج راهنة وادلة بيّنة . وليست اسانيدهُ كاثوليكية فقط بل ربَّما روى عن كتبة الروم الاورثدكس والبلغار والبروتستانت فلا يدع شيئاً مما يؤدي بهِ الى معرفة ما قصد بيانهُ . هذا فضلاً عن درسهِ لكتب الرتب الطقسيَّة اليونانيَّة على مدار السنة الليتورجية . فناهيك بذلك برهاناً على حسن استعداد المؤلف للكتابة في ما تحرَّى تسطيرهُ

على انَّ الكاتب الفاضل لم يعتبر كل هذه المصادر السابق ذكرها اعتباراً واحداً بل ميَّز بينها على حسب فضل كتبتها وعلمهم وصدق رواياتهم وممَّا صرَّح بثقتهِ فيهِ كتاب العلَّامة هرغنورتر (Hergenroether : *Photius*) في ترجمة البطريرك فوطيوس وهو حقيقةً كتاب جليل لم يدَّخر فيهِ صاحبهُ وسعاً في ضبط وتدقيق معلوماتهِ . وكذلك يطرى كتاب الاستاذ كاتنبوش في تعريف المعتقدات الكنسيَّة : (Kattenbusch *Lehrbuch d. vergleich. Konfessionskunde*) وعلى خلاف ذلك فانهُ يحطُّ من قدر كتاب الاستاذ نيل في تاريخ الكنيسة الشرقية (G. M. Neale : *History of the Holy eastern Church*) فلا يرى تحته كبير امر

ولا نظن مع هذا انَّ المؤلف استوفى في جدولهِ السابق كلَّ الكتب التي لمكنهُ مراجعتها والتي كان يستطيع ان يستفيد من بعض تآليف الاب بيرلنغ (Pierling) والاب غاغارين (Gagarin) اليسوعيَّين وتآليف الخوري مكسيليان ابن امير الكرس في الليتورجيَّات الشرقية . وردّ الاب براندي على البطريرك اثيوس السابع وبعض تآليف الاب تديني البرنبي . وتآليف بيتزيبيوس (Pitzipios) في الكنيسة الشرقيَّة وكتب اخرى مفيدة

وما يجدر بنا ان نزيدهُ هنا في ذكر صاحب الكتاب انَّهُ يُشعر في كل صفحة من صفحات كتابهِ بما يتضمَّنهُ قلبهُ من الحب الصادق للكنيسة الشرقية فيعظِّم اعمالها ويجلّ قديسيها ويطنب في محامد كتبتها ويسترسل في اوصاف طقوسها وليتورجياتها ويرثي لاوجاعها وبلاياها وغاية ما يتمنَّى ان يعيد لها بهاءها القديم ورونقها السابق ويتحاشى كل ما من شانهِ ان يسيء احساسات اهلها . ولذلك لم يشأ ان يدعوها باسم الكنيسة المنقطعة

بل عنون كتابهُ باسم رضيَتْ هي به وهو اسم الكنيسة الشرقية الاورثذكسية قاطعاً النظر عن مطابقتهِ للمسمّى وكلّ الكنائس كما لا يخفى تتمتّ قسمها بالاورثذكسية اي المستقيمة الرأي . وهو يفهم به هنا كلّ الكنائس التي كانت سابقاً تحت حكم الكنيسة البرزنطية او تنتمي اليها في عهدنا وان كانت مستقلة عنها

٢ مواد الكتاب ومباحثهُ

هلمّ بنا بعد تعريفنا لصاحب هذا التأليف والمصادر التي اخذ عنها نستقري فصول الكتاب ونتتبع ما اودعهُ فيها من الابحاث .

قد قسم المؤلف كتابهُ الى اربعة اقسام تشمل مجموع المطالب التي تختص بالكنيسة الشرقية الاورثذكسية . ففي القسم الاوّل يبحث عن تاريخها قبل انفصالها عن الكنيسة الرومانية . وفي الثاني يلخّص خبر ذلك الانفصال ويروي اسبابهُ الصحيحة . ثمّ في القسم الثالث يبيّن ما تثبّتت فيه الكنيسة الاورثذكسية من الاطوار بعد الانفصال . ويختم كتابهُ بقسم رابع خصّهُ بتعريف احوال الكنيسة الشرقية في ايامنا

﴿ القسم الاوّل ﴾ مدارهُ على البطريركيات الشرقية واصولها وعددها وترتيبها وامتيازاتها وهو بحث جليل سبق اليه الشرق في سنة الخامسة . فذكر حضرة المؤلف علاقة الكرسيين الانطاكي والاسكندري بالكرسي الاوّل اي الرومانيّ ثمّ تخلّى الى ذكر الكرسيّ الاورشليميّ الذي نال في القرن الرابع امتيازات خاصة لما يجري في القدس الشريف من الاسرار المقدسة واعقب ذلك بتاريخ الكرسيّ القسطنطينيّ الذي لم ينل امتيازات البطركيات الّا بطريقة غير قانونية فبرح اصحابهُ يطمعون في التقدّم ويسعون طاقة جهدهم في عنصر الرئاسة زعماً منهم بان القسطنطينية اضحت رومية الجديدة بعد ان جعل فيها الملك قسطنطين مركز اعمالهم فتحقّق لهم السيطرة على الكنائس الشرقية لهذا السبب . لكنّ الاحبار الرومانيين لم يزالوا يدافعون عن حقوق الكرسيين الانطاكي والاسكندريّ ويحتجّون على تطاول الكرسي البرزنطي كما فعل خصوصاً القديسان لاون الكبير وغريغوريوس الكبير حتى لحوجتهما الظروف بالصفح عن تلك المطامع . وكان مع ذلك كرسي القسطنطينية مقرّاً لرئاسة الحبر الروماني على الكنيسة جمعاء الى عهد فوطيوس كما تدلّ عليهِ البينات الثابتة والقواعد التاريخية المتواطئة ولاسيما اقوال آباء المجامع المسكونية السبعة الاولى . وقد لخّص حضرة الدكتور فصلاً كاملاً في بيان

ذلك استنادًا على شهادات الكتبة الاقدمين والمؤرخين المحققين. وقد انهى هذا القسم بفصل افرده لايضاح معتقدات الكنيسة الشرقية في القرون التسعة الاولى وفي آدابها وليتورجياتها وفنونها الصناعية لاسيما التصوير والنقش... فهذا القسم كما ترى شامل لاحوال بوزنطية الدينية احسن تكاتب في بيانه ملخصًا مضامينه عن اوثق الكتبة الشرقيين والغربيين

اما القسم الثاني فهو يحتوي تاريخ الانفصال بين كنيسة رومية والكرسي البوزنطي وبيان ذلك يقتضي شروحًا وتفاصيل متعددة يصعب ايضاحها بكلام وجيز وقد عرف الدكتور فورتسكيو كيف يوردها بحيث يكون القارئ على بصيرة من الاسباب التي أدّت الى ذلك الانشقاق المشؤوم. وقد بيّن ما تفرّد به فوطيوس من المزايا والصفات وخصوصًا ذكاءه وسعة معارفه التي ابقى منها آثارًا جمة الّا انهُ شوّه تلك النجاية الطيبة بحبّ مفرط للرئاسة وذلك ما كان السبب الاعظم للشرور التي حلّت بالكنيسة البوزنطية فتصيد التديس اغناطيوس البطريرك الشرعي ولم يزل يضطهده حتى اثرهُ مرغومًا عن كرسيه سنة ٨٥٧ فحدا الامر بالتديس نيقولا الكبير بابا رومية بحرم فوطيوس ثم بحمد هذا ليدافع عن قضيته وسيتهُ الّا بنسبة الخرقاء للكنيسة الرومانية بقولها بانبثاق روح القدس من الاب والابن معًا

على انّ ذلك الانفصال الذي شيّعهُ فوطيوس لم يكن نهائيًا وقد بيّن مصنف هذا الكتاب بعدّة شواهد انّ خلاف فوطيوس عادوا الى الوحدة مع الكرسي الرسولي والخضوع لاوامر لاحبار الاعظمين حتى قام ميشائل كرولاريوس الذي فصم نهائيًا عروة الوحدة. ثم انّ الدكتور فورتسكيو ينسب لبعض الغربيين هفوات ارتكبوها عجّلت وقوع ذلك الانفصال الّا انّ تبطريرك كرولاريوس اتى باعمال لا يمكن تركيبها على الاطلاق فانهُ ازال اسماء احبار الرومانيين من الدبطيخا المقدسة وأقفل كنائس اللاتين في جهات بطريركيته وبغى في سوء تصرفه الى حدّ اوجب انتباهة بنيه كما تقوا سلفهُ فوطيوس على انّ وحدة الكنيسة منذ ذلك اليوم أصيبت بضربة لازبة

اما القسم الثالث فهو يتضمن اخبار الكنيسة الشرقية الارثوذكسية بعد انفصالها في القرن الحادي عشر عن مركز الوحدة. فيفصّل ما سعى به كبار الاحبار لرتق الفتق ورد الابنة الشاردة الى أبيها. وذلك في المجامع المقدسة التي عقدت في مدينة فلورنسية ثم في

مدينة ليون ثمّ في فيرنسة وكان ازوه في كل هذه المجامع يتصدون الانضمام الى امّ الكنائس ويسعون فيه بعض السعي ثمّ لا يلبثون ان يعودوا الى إبائهم وتورهم حتى قُطع امل الانضمام في سنة ١٤٥٣ بفتح القسطنطينية الاورثذكسيّة من النوائب والرزايا. على انّ الكنيسة الرومانيّة لم تهمل كرسيّ القديس فريموريوس اثلاهوقي والقديس يوحنا فم الذهب كما تشهد عليه الرسالات اللاتينية التي لا تزال في الشرق تمهّد الطرق للاتحاد الدينيّ وإبطال اسباب النفور

ومن فصول هذا القسم المفيدة تاريخ المدارس والدروس في البطريركية القسطنطينية وتفصيل مساعي البروتستانت في اجتذاب اصحاب الكرسي البوزنطي الى آرائهم خصوصاً في القرن السابع عشر على عهد كيرلس لوكاريس. ولولا همّة المرسلين الكاثوليك لغلبت تلك الآراء على كنائس الشرق

﴿ القسم الرابع ﴾ هذا القسم يصف احوال الكنيسة الشرقية الاورثذكسية في عهدنا فيعدّد في فصل اوّل بطريركيتها وكراسيها الستة التي انفصلت بالتدبير والنظام عن الكرسيّ القسطنطيني كتبرص ثمّ روسيا (سنة ١٥٨٩) ثمّ الكرج ثمّ كرونشتس للمجر وكرارغورا للجبل الاسود (١٧٦٥) ثمّ كرسي طور سينا الذي عُرف استقلاله رسمياً سنة ١٧٨٢. ثمّ كنائس اليونان (١٨٦٠). ثمّ كرسي هرمنشتاد للفلاخ والرومان (١٨٦٤). ثمّ كرسي البلغار (١٨٧٠). ثمّ كرسي كرارنوفتس لبلاد بوكوفين في النمسا (١٨٧٣) ثمّ كنيسة سربيا (١٨٧٩) ثمّ كرسي الهرسك والبشناق (١٨٨٠) ثمّ اخيراً كنيسة رومانيا (١٨٨٥)

ويلي الفصل السابق عدّة ابواب اولها باب في نظام الكنائس الشرقية الاورثذكسية وخدمة دينها من رأسها البطريرك ومطارنتها واساقفتها وكهنتها ورهبانها الى شمامستها وطلبتها. وفي الباب التالي تعريف بإيمان تلك الكنائس وما يفصل بينها وبين الكنيسة الرومانية كرئاسة الحبر الاعظم وقضية الانبثاق والاستحالة الجوهرية والمطهر والحبل بريم العذراء بدون الخطيئة الاصلية. ويبدي الكاتب رأيه في كل ذلك ولا يرى من المستحيل تذليل تلك العقبات

والباب الثالث يحيط علماً بالتعريفين بعادات الروم وكتبهم واعيادهم ورتبهم

وكبهم الطقسية الى ما هناك من الاقادات عن الفنون الصناعية الدينية كبناء الكنائس والتصاوير والموسيقى والآنية القدسية الخ

وقد ختم الكتاب مجاهرًا بأمله في عود تلك الوحدة التي هي زينة الكنيسة وموضوع دعاء السيد المسيح الذي طلب من ابيه ان تكون الحظيرة واحدة والراعي واحدًا

هذا نظر عمومي عن ذلك السفر الجليل الذي احيينا وصفهُ لقرائنا . وغاية ما نرغب ان ينقل هذا الكتاب الى لغتنا العربية لتقرب فوائدهُ من اهل هذه البلاد ويسرا جهدهم في تعجيل تلك الوحدة المرغوبة التي يشتاق اليها كل المسيحيين

وكنا نود بان نلحق الاسطر السابقة ببعض ملحوظات في هذا الكتاب ونحن نعلم انَّ مؤلفهُ يتلقاها بالشكر ويستفيد منها لطبعة ثانية . لكنَّ ملحوظاتنا هذه في امور عرضيَّة لا تمسُّ جوهر الكتاب ولا يسعنا هنا ايرادها لضيق المكان . وانَّا نكتفي بان نعلم حضرتهُ عن جميع الاومن المعتمد في توقين انهُ عُقد سنة ٥٠٥ او ٥٠٦ وليس كما كان يزعم الاقدمون سنة ٥٩١ وقد ثبت الآن بأن انقسام الارمن عن الكنيسة على عهد فوقي الثاني تمَّ سنة ٥٩٤ . والامير قد تزيَّن بنشر كتاب قديم موسوم بكتاب الرسائل الذي طُبع في تفليس سنة ١٩٠١ . وباختام نتمنَّى لهذا الكتاب رواجًا وانتشارًا جازى الله مصنفهُ كلَّ خير

مطبوعات شرقية جديدة

Abbé Curtet: La Terre Sainte autrefois par aujourd'hui. *Nouv. édit.*. 1905, Belley, Chadnc. 172 pp.. gr. 8° — Suppléments 1907-1908, 32 pp.

الاراضي المقدسة وتعريف قديمها من حديثها

قد زار صاحب هذا الكتاب غير مرَّة بلاد فلسطين فاذهلتهُ امورها وعادات اهاليها وأدرك بالعيانة ما بينها وبين روايات الكتب المقدَّسة من التشابه ثمَّ وجد في رحلاته كثيرين من الزوَّار ملحوظات كملحوظاته الخاصَّة فجمعها واضافها الى ما عاينهُ بنفسه